بنية الإستراتيجية الاستعمارية في القضاء على النظم الاجتماعية و الثقافية في الجزائر 1830-1962

أ / عيسى بن قبي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

أهداف السياسة الاستعمارية في المجال الاجتماعي :

لقد سعى الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى إخضاع البلاد و العباد إلى سلطته؛ أي الاستيلاء على الأرض و إخضاع الشعب الذي يعيش عليها لسيطرته .ولئن اعتمد على القوة العسكرية لبلوغ الغاية الأولى ــ أي إخضاع البلاد ــ فقد عمد لبلوغ الغاية الثانية و هي إخضاع العباد إلى تحطيم ما هو قائم من نظم اجتماعية و ثقافية في البلاد ــ و التي بفضلها قاومه الشعب الجزائري مقاومة عنيدة ــ ، ليشرع في إحداث نظم بديلة تتفق و السياسة الاستعمارية التي كان ينتهجها ، مستغلا في ذلك حرب الاحتلال الطويلة وعدد الجند الذين شاركوا في هذا الاحتلال، و عدد المستوطنين الذين استعان بهم جيش الاحتلال في الأماكن التي احتلها و أخضعها لهم.

ولتحقيق هذه الأغراض فقد بنيت سياسة الاستعمار الفرنسي في المجال الاجتماعي اتجاه الشعب الجزائري على سلسلة من الإجراءات المتعاقبة و المتزامنة أحيانا، يكمل كل منها الأخر، و كلها تصب في بوتقة واحدة ،و ترمي إلى بلوغ غاية أساسية؛ تتمثل في خلق مجتمع جزائري منسجم مع الغايات

والأهداف الاستعمارية الفرنسة ،بحيث يكون مفصولا عن أصوله الثقافية والاجتماعية ،مندمجا في المجتمع الفرنسي دون أن يرقى ـــ من وجهة نظر المستعمر ـــ إلى ،ذلك أن الإدماج من الناحية النظرية؛ يعني التماثل بين المستعمرة و الدولة الأصل ـــ أي المحتلة ـــ في نظام الحكم و التسوية بينهما ويرتكز مذهب الإدماج لدى الفرنسيين على هذه الفكرة ،و هي أن إقليم ما وراء البحار ليس إلا امتدادا لدولة الأصل، فيجب إذن أن يوضع تحت نفس النظام هناك أو على الأقل تحت نظام مقارب له ما أمكن ذلك كما أن سكان الدولة الذين يقيمون في الجانب الآخر من البحر؛ يجب أن لا تكون حقوقهم وضماناتهم اقل من حقوق و ضمانات أولئك الذين يعيشون في الجزء الأقدم من الدولة (2) .

لقد عملت السياسة الاستعمارية في الجزائر على بتر هذا المجتمع من تاريخه و إعادة تشكيله ،ليكون أداة طيعة في يد الاستعمار وذلك بإتباع الخطوات التالية :

ــ طمس أسس و مقومات هذا المجتمع و تحطيم بنيته التحتية المتمثلة أساسا في الدين الإسلامي؛ الذي يمثل رمز الوحدة بين مختلف عناصره، و السعي في المقابل لنشر الدين المسيحي من خلال القيام بحملة واسعة لتنصير سكان البلاد .

ــ تفقير و تجويع الشعب الجزائري حتى تسهل عملية إخضاعه و انسياقه لتنفيذ المشاريع الاستعمارية .

1 ــ **محاربة الدين الإسلامي** : لقد كان الاستعمار الفرنسي على علم مسبق بشدة ارتباط الشعب الجزائري بإسلامه، و تمسكه بتعاليمه السمحاء، و بغيرته القوية عليه و على مقدساته ،و ذلك من خلال التقارير المفصلة التي كانت تصله

من عند قناصلته و جواسيسه بالمنطقة (3) ،كما كان على علم بأن الإسلام يمثل عامل وحدة في الجزائر ،فقد جلب لها عقيدة ساهمت في توحيد السلوك والاتجاهات ،ولغة وحدت التفكير و الشعور و بالتالي فهو يجسد القيم العليا للشعب الجزائري (4) ،لذا عمل منذ وطئت أقدامه ارض الجزائر على محاربته والقضاء عليه، باستعمال طرق ووسائل متعددة؛ منها السعي للاستيلاء على مقدساته من مساجد وزوايا ،حيث كانت القوات الفرنسية بعد احتلال المدن تهرع إلى مساجدها فتهدم بعضها و تحول البعض الأخر إلى كنائس أو مستودعات عسكرية، ففي العاصمة وحدها عام 1830 أغلقت سلطات الاحتلال ثلاثة عشر مسجدا كبيرا و مائة ثماني مساجد صغيرة و اثنى وثلاثين جامعا و اثنى عشر زاوية و في عام 1862 لم يكن مخصصا للمسلمين لإقامة شعائرهم الدينية سوى أربعة مساجد كبيرة و ثمانية مساجد صغيرة و تسع جوامع فقط (5)

إضافة إلى ذلك فقد حولت المساجد المغلقة لأغراض أخرى، فمسجد كتشاوة مثلا حول عام 1830 إلى كاتدرائية و مسجد السيدة أقيم على أنقاضه فندق دي لاريجانس . و على نفس المنوال سار الاستعمار في باقي المدن الجزائرية كمدينة وهران، حيث حول مسجد سيدي محمد الهواري المشاد عام 1799م إلى مخزن عام للعسكريين، و في قسنطينة حول مسجد صالح باي إلى كنيسة، و في تلمسان حول مسجد سيدي أبي الحسن المشاد عام 1279 م إلى متحف، و في معسكر حول مسجد العين البيضاء إلى مخزن حبوب للجند (6) .كما تم إغلاق العديد من الزوايا بدعوى أنها أصبحت مصدرا للتمرد على سلطة القانون ، مثل الزاوية الرحمانية بصدوق. و لم تكتف

السلطات الاستعمارية بهذه الأعمال بل قامت في نفس الوقت بمصادرة الأوقاف الإسلامية ؛التي كانت في غالبيتها تابعة للمؤسسات الدينية ،حيث رأت فيها جهازا إداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين (7).

كما لم يسلم علماء الدين من أئمة و وشيوخ الزوايا خاصة الذين رفضوا السير في فلك الاستعمار من البطش، حيث وضع حد لنشاطهم الديني والثقافي و فرضت عليهم و على أتباعهم مراقبة شديدة و دائمة، و نفي الكثير منهم وشدوا إلى مناطق نائية داخل البلد و خارجه (8) ، بوصفهم دعاة لهذا الدين و مرشدي الشعب الذي كان ينقاد لأوامرهم و يصغي لتوجيهاتهم، وبالتالي كانت فرنسا ترى فيهم حجر عثرة أمام تنفيذ أهدافها الرامية إلى القضاء على الإسلام، و غزو هذا الشعب فكريا و هو ما عبر عنه أحد كتابهم بقوله " ....كل الإجراءات التي اتخذناها ليست بكافية ، إذ يستوجب للقضاء فعليا على هيمنة الطرق الصوفية على عامة المسلمين، تحويل و تغيير المجتمع الإسلامي لكن عند شعب يمتاز بتجذر الإيمان، فإن التأثيرات الدينية لا يمكن أن تنمحي فجأة و بالتالي يجب مواصلة و بدون هوادة الغزو الفكري للأهالي، و التوغل في ذهنيات المسلمين إلى أن يأتي اليوم الذي يتمكن فيه أتباع الطرق الصوفية المتنورين بالحضارة ـــ أي الفرنسية ـــ تحطيم روابط العبودية التي تربطهم بشيوخهم ، في هذا اليوم سيهزم الإسلام .... و في انتظار هذا اليوم السعيد يجب مواصلة العمل بدون هوادة " (9).

ورغم هذه الأعمال الشنيعة التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية الفرنسية في حق مقدسات هذا الشعب، و المتنافية مع الالتزامات التي تقيد بها حين وقعت

مع الداي حسين معاهدة الاستسلام في 5جويليا 1830 ـــ (10)إلا أنها كانت على يقين بأنه لا يمكنها القضاء بصفة كلية على الإسلام في الجزائر، و في المقابل فإن بقاء هذا الدين سيؤدي إلى زوال الاستعمار عاجلا أم آجلا ،ذلك أن الإسلام ـــ كما اخبرهم علماؤهم المختصون في الشؤون الإسلامية ـــ كان الدافع وراء كل الانتفاضات و الثورات و المعارضة السياسية و المعنوية ضد الوجود الفرنسي بالجزائر(11).

و أمام هذا الوضع عمدت السلطات الفرنسية إلى الإبقاء على إسلام مكيف وفقا لأهدافها ينسجم ومخططاتها الاستعمارية ، و ذلك عن طريق إفراغه من محتواه، و تعطيل العمل بتعاليمه وتحويله إلى مجرد طقوس خرافية لا معنى لها ولتتمكن من تنفيذ مخططها هذا حاولت إبقاء الشؤون الخاصة بالديانة الإسلامية تحت سيطرتها، ولم يتم تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة و حرية العبادة إلا على المسيحية و اليهودية ،فبالرغم من أن قرار فصل الدين عن الدولة قد صدر في فرنسا عام 1905م و بمقتضاه أصبحت الكنيسة في فرنسا مستقلة بكل ما يتصل بالدين المسيحي عن الدولة ، و رغم أنه طلب العمل به في الجزائر بموجب مرسوم 28 سبتمبر سنة 1907م فإن القرار استثني في تنفيذه الدين الإسلامي(12) .

و في إطار هذه السياسة قامت بتعيين رجل دين مسلم رسمي موظف من طرف الدولة وخاضع لتوجيهاتها، مكلف بإقامة الشعائر الدينية في المسجد ـــ بالرغم من أن الإسلام ديانة بدون رجال دين إكليروس ـــ و يتم تكوينه في مدارس فرنسية، و من واجباته محاربة حركة الطرق الصوفية ،لكن الإدارة الفرنسية أدركت بسرعة بأن رجل الدين المعين فاقد لكل نفوذ اتجاه

الأهـــــالي (13) و لبلوغ هذا الهدف عملت على كسب بعض المرابطين من شيوخ الزوايا وأئمة الإسلام ممن قبلوا أن يكونوا أداة طيعة في يد الاستعمار ـــ سواء كان ذاك عن وعي منهم أم لا ـــ فاستمالتهم إليها مغذية فيهم روح التفسخ الديني و الانحلال الخلقي ،فأخذت تغدق عليهم الأموال في هذا السبيل ليقيموا الحفلات و الولائم مسيطرة بواسطتهم على المريدين البسطاء.و أخذ إعلام المستعمر يصور حلقات الذكر التي يقيمها هؤلاء على أنها من شعائر الإسلام و أن هؤلاء المشايخ هم رجال الإسلام و حماته ، وفي نفس الوقت شجع على انتشار البدع و الخرافات و أعمال الشعوذة و بهذه الطريقة تتمكن السياسة الاستعمارية من تحقيق غايتين في نفس الوقت:

الغاية الأولى أنها تقضي على خطر الإسلام و تحوله إلى أداة خمول و سكون واستسلام للجزائريين بعد أن كان مصدر كل معارضة و انتفاضة ضد الوجود الاستعماري بالجزائر و مخططاته الاستيطانية .

الغاية الثانية هي دفع الأجيال الجديدة من الشباب الجزائري المثقف ـــ خاصة باللغة الفرنسية ـــ إلى النفور من هذا الإسلام الخرافي الذي لا يتلاءم ومتطلبات العصر، و بالتالي سيرتمي في أحضان الثقافة الفرنسية ،حيث لن يكون أمامه بديلا عنها(14)

2 ـــ التنصير :

ونعني بالتنصير محاولة إخراج الجزائيين من دينهم الإسلامي إلى النصرانية ،كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل لبلادهم. و هذا يعني إحلال الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية (15) و كان التنصير من الأهداف المعلنة للحملة الفرنسية على الجزائر فعندما سقطت مدينة الجزائر في جويلية من عام

1830 و دخلها الفرنسيون ،صرح الجنرال دو بورمون للقساوسة و رجال الدين الذين رافقوا الحملة العسكرية قائلا " إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا و لنأمل أن تنير قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع " (16)وفي نفس السياق جاء في الخطاب الذي ألقاه سكرتير الحاكم بقسنطينة أثناء الاحتفال بتحويل مسجد صالح باي إلى كنيسة " إن آخر أيام الإسلام قد دنت و في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائريين إله غير المسيح يعبد و نحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد أما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا إلا إذا اصبحوا مسيحيين جميعا " (17).

ورغم أن فرنسا دولة لائكية ؛أي علمانية كما ينص دستورها إلا أنها في الجزائر احتضنت سياسة تبشيرية واسعة النطاق لتنصير الجزائريين. وقد عبر فرحات عباس عن هذا التناقض بقوله "إن الثورة البرجوازية في فرنسا أعدمت الرهبان ،و أحرقت الكنائس، و حاولت نزع الملكية من بلد مسيحي . أما في الجزائر فهذه البرجوازية نفسها جعلت من المساجد كنائس تنشر المسيحية وتبشر بها في قطر إسلامي، و استعملت في ذلك أموال المسلمين ـــ يقصد بها أموال الأوقاف الإسلامية المصادرة ـــ وتلك هي الطامة الكبرى حيث بعثت الروح الصليبية من مرقدها ،رافعة راية المسيح لمحاربة الإسلام، و لو كانت في قرارة نفسها تعبث بكلا الدينين " (18).

و ظهر تعاون وطيد في هذا المجال بين السلطة العسكرية و الكنيسة منذ البداية، وقد ظهر على أوضح صورة بمناسبة تنصيب الاخوة لاتراب في اسطوالي عام 1843، ففي رسالة وجهها بيجو للراهب ريجيس رئيس هذه الطائفة

الدينية ، نوه المارشال بالعلاقات المتينة الموجودة بين الراهب و الجندي، و عبر عن يقينه بأن " الخصال الحميدة و الأعمال الصالحة التي اشتهر بها الاخوة لاتراب سوف تساعد في استمالة قلوب العرب إلينا بعدما أخضعناهم بقوة السلاح " و لم تمضي إلا فترة
قصيرة حتى وضع حجر الأساس في 14 ديسمبر1843 لدير الاخوة لاتراب ومن قبل المارشال بيجو نفسه، و في مكان أفرش بالقذائف الملتقطة من ساحة المعركة في اسطوالي، أي في نفس المكان الذي أحرز فيه الجيش الفرنسي النصر الذي مهد لسقوط العاصمة الجزائرية بين الفرنسيين (19)لقد كانت مهمة المبشرين تقديم الدعم و المساعدة للاستعمار في السيطرة على السكان و دفعهم لقبول الأمر الواقع بعد أن سيطر على الأرض(20) لقد أدرك الاستعمار الفرنسي أن نشر الديانة المسيحية في الجزائر ستمكنه من تثبيت وجوده بأرضها و تقيه معارضة السكان لهذا الوجود .

وهكذا استمر العمل في هذا الاتجاه طيلة فترة الاحتلال، إلا أن الساسة الفرنسيين، ورجال الدين ،كانوا على يقين بأن إخراج الكبار من دائرة الإسلام ،وتحويلهم إلى مسيحيين أمر شبه ميئوس منه ،لذا تم التركيز أساسا على الجيل الجديد من أبناء الجزائر، ولعل أبرز نشاط في هذا المجال ما قام به الكاردينال لافيجري << كاردينال الجزائر، و مؤسس جماعة الأباء البيض>> (21) فقد صرح عند قدومه إلى الجزائر بما يلي: " علينا أن نخلص هذا الشعب ..... وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي نشأ عليها أجدادهم فان واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم التحضر" (22). و هذا ما ينم على الروح الصليبية العدائية

التي كان لافيجري وغيره من المبشرين يحملوها اتجاه الجزائريين الرافضين التخلي عن إسلامهم و اعتناق المسيحية ،وقد طاف بمناطق واسعة من الجزائر خاصة منطقة القبائل، و استغل المجاعة التي حلت بالبلاد خلال سنتي 1868و 1970 ،و التي أدت إلى هلاك اكثر من 200 ألف نسمة (23) ، حيث جمع عددا من الأيتام و الفقراء قدر وا بحوالي 1752 طفلا قدم بهم إلى العاصمة ،أعاد البعض إلى أهلهم و احتفظ بحوالي 600 طفل، و أرسل البعض إلى فرنسا و الباقي جمعهم في ملجأ خاص بابن عكنون حيث رباهم تربية فرنسية مسيحية (24).
و في نفس الوقت الذي كانت فيه السلطات الفرنسية تضيق الخناق على التعليم العربي الإسلامي الحر، و تصدر القانون تلو الآخر لإغلاق المدارس القائمة ومنع إقامة مدارس جديدة ، كانت في المقابل تقدم التشجيعات و توفر التسهيلات للهيئات المسيحية التبشيرية من أجل بناء مدارس مسيحية تفتح أبوابها لأبناء المسلمين، ابتداء من سنة 1878م تم تأسيس 21 مدرسة مسيحية بمنطقة القبائل يدرس بها 1030 تلميذ تحت إشراف و تسيير جماعة الآباء البيض ،و توسعت التجربة لتشمل مناطق أخرى من الوطن حتى منطقة ورقلة بجنوب البلاد.

لقد كان هدف فرنسا من هذا النشاط التنصيري الواسع هو القضاء على الإسلام بوصفه المصدر المغذي للمعارضة الشعبية الرافضة للوجود الاستعماري، وفي المقابل خلق أجيال جديد من الجزائريين يتبنون المسيحية دينا بدلا من الإسلام و يتخذون فرنسا وطنا و أما .و بعبارة أخرى تحبيب فرنسا للجزائريين و تحسين صورتها في نفوسهم باسم المسيح (25).

3- القضاء على عادات و تقاليد الشعب الجزائري :

لقد وجد الاستعمار في تمسك الشعب بعاداته و تقاليده التي يتميز بها والمتمثلة في التآخي و التراحم و التآزر في السراء و الضراء بين مختلف عناصره إلى عاداته في الملبس و المشرب ... عاملا سلبيا يتنافى و مخططاته الاستعمارية ويحول دون تحقيقه لمشاريعه الاستيطانية حيث تحول هذه العادات دون انغماسه في متاهات الحضارة الغربية وتأثيراتها في هذا المجال .و انطلاقا من هذه المعطيات سعت السياسة الفرنسية إلى تفكيك البنية الاجتماعية للشعب الجزائري عن طريق إدخال العادات الغربية و تشجيعه لتبنيها من جهة وسعت من جهة أخرى إلى تشتيته، و القضاء على ترابطه و وحدته من خلال تفكيك التشكيلة الاجتماعية ،وإلغاء عرف القبيلة و زرع الفتنة و الفرقة بين أعضائها (26) .

وفي هذا السياق يقول الدكتور بوديشون " لا يهم فرنسا أن تخرق في سياستها الاستعمارية المقاييس الأخلاقية و قيمها و ،لكن الذي يهمنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية، و ننشر على شواطئ البربر المدنية الأوربية، و من البديهي أن أقصر الطرق لبلوغ غايتنا هو نشر الرعب ،ففي استطاعتنا أن نحارب أعداءنا الإفريقيين بالحديد و النار و أن نضرم نار الفتنة بين قبائل التل و الصحراء، و أن نبلوا السكان باستهلاك الكحول و نشر الفساد وبث عقارب النزاع و الفوضى بينهم " (27) .

لقد أدرك الاستعمار بحسه الماكر أن نفوس الجزائريين الثائرة لن تكبح جماحها إلا إذا تم تخديرها، ففتح أبواب الحانات عل مصراعيها في كل قرية و مدينة وتساهل في منح الرخص لطالبيها في حين كان يتشدد في منحها لفتح مدرسة أو ناد.

أما الدعارة فقد قامت السلطات الاستعمارية بنشرها كالوباء في كل حي دون مراعاة للأوساط العائلية الشريفة و لا احترام لقدسية الأماكن الطاهرة حتى بات جامع سيدي رمضان بالعاصمة تحيط به بيوت العاهرات إحاطة السوار المعتصم و مثله الجامع الأعظم بمستغانم (28)

و في سبيل نشر الفتنة و الفرقة بين الجزائريين ، انتشرت المكاتب العربية في كل مكان تغذي الخلافات الفردية و النعرات القبلية و التنافس على المناصب ونحوها لكي تظل هي سيدة الموقف ،تتدخل عند الحاجة و تحكم بأسهل الطرق وفق ما يخدم المخططات الاستعمارية .

كما لم تكتف السلطات الفرنسية في هذا المجال بما قامت به جيوشها العسكرية من قتل وتنكيل و تهجير للعديد من القرى مما انعكس عنه تفكك في البنية الاجتماعية وترابطها الأسري خاصة تلك التي هجرت إلى المدن أو اضطرت أن تهاجر بعد أن فقدت كل ما كانت تملكه في البادية ،بل راحت تصدر القوانين و التشريعات التي من شأنها أن تحدث شرخا و تمزقا ومساسا بوحدة المجتمع الجزائري دون أن تكترث لذلك ولنذكر هنا ما كتبه" باليسي دي رينو" المسئول عن المكتب العربي قائلا " إن الإدارة الفرنسية تتصرف وكأنها مقتنعة بان الجزائريين لا يمثلون إلا مجموعة من الأشخاص دون صلات تشد بعضهم بعضا و ينعدم فيهم التنظيم الاجتماعي " (29) وتكريسا لهذه السياسة فقد ربط "نابليون الثالث" في إطار قانون "سناتوس كونسيلت" الذي أصدره سنة 1865 الحصول على الجنسية الفرنسية بالنسبة للجزائريين — والتي تعني من الوجهة النظرية تمتعهم بنفس حقوق المواطن الفرنسي — بالتخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية فيما يخص الأحوال الشخصية و الاحتكام للقانون

الفرنسي، بحجة أن أحكام الإسلام في هذا المجال لا تتناسب مع الجنسية الفرنسية (30").

واصلت السلطات الاستعمارية العمل على محاربة أحكام الشريعة الإسلامية ومن خلالها عادات و تقاليد المجتمع المستمدة منها و ذلك بإصدارها في عام 1859 قانونا يخرج القبائل ((البربرية)) الامازيغ في منطقة جرجرة عن أحكام الشريعة الإسلامية بحجة أن سكان هذه المنطقة ليسوا مسلمين، إنما فرضت عليهم أحكام هذا الدين من قبل العرب، و بالتالي تم إخضاعهم بدل ذلك للعرف بالنسبة للأحوال الشخصية كأمور الزواج و الطلاق و الميراث ،وهدفها من وراء ذلك هو تنصير سكان المنطقة من ناحية، و زرع الشقاق بينهم و بين بقية سكان الوطن. و أزالت المظاهر التي تعبر عن الانتماء العقائدي للمجتمع كالقضاء الإسلامي، حيث يقول الأميرال "دوقيدون " " يجب أن ينمحي القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي ، فنحن الفاتحون فلنعرف كيف نفرض إرادتنا " (31) . ولم يكد يمضي عامان على صدور قانون إلغاء المحاكم الشرعية الإسلامية في بلاد القبائل حتى قامت ثورة كبرى هناك عام 1870 ــ 1871 بقيادة الشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية و الحاج محمد المقراني و بعد أن قمعت فرنسا الثورة المذكورة ألغت المحاكم العرفية هناك و أحلت محلها محاكم فرنسية خالصة؛ تحكم في أمور الأحوال الشخصية بين سكان هذه المناطق المسلمين حسب القانون المدني الفرنسي، و ذلك طبقا لقرار 29 أغسطس عام 1874(32) .

لقد حاولت السلطات الاستعمارية من خلال السياسة التي انتهجتها في الجزائر تحليل القبيلة و تشتيت شمل المجتمع من خلال ذلك ،و إفساد نظام العدالة

الإسلامية المتبع من قبلها ، و أخيرا تحطيم التقاليد القديمة التي كان تسير عليهـــا (33).

4- تجويع الشعب الجزائري :

كان العامل الاقتصادي من أهم دوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر، والذي كان يهدف من خلاله إلى تحسين الظروف الاجتماعية للفرنسيين بل وللأوربيين عامة على حساب خيرات الجزائر و شعبها، وهو ما عبر عنه بوضوح في بداية الاحتلال الجنرال جيرار وزير الحربية الفرنسي في عهد الملك لوي فيليب بتاريخ 12 نوفمبر 1830 عندما قال " إن هذا القرار ــ أي غزو الجزائر ــ يرتكز على أهم الدوافع المرتبطة ارتباطا وثيقا بحفظ النظام الاجتماعي في فرنسا بل وفي أوربا و ذلك عن طريق فتح منفذ واسع لفائض السكان وتصريف منتجات مصانعنا لقاء منتجات أجنبية أخرى غريبة عن أرضنا و مناخنا " (34).

و لقد توجهت أطماع الاستعمار منذ الوهلة الأولى إلى المورد الأساسي الذي يعتمد عليه الشعب الجزائري في تأمين غذائه وهو الأراضي الفلاحية حيث لم يكن للعرب صناعة غير صناعة الفلاحة و ليس لهم استثمار لرأس المال خارج فلاحة الأراضي و تربية الأغنام (35) .فالأرض هي مصدر الرزق الأساسي لسكان الريف الذين يمثلون الأغلبية الساحقة، إذ تبلغ نسبة الذين يعيشون من الزراعة آنذاك 70% من جملة عدد السكان.

و انطلق الاستعمار في الاستيلاء على الأراضي الزراعية منذ الوهلة الأولى لتواجده متبعا طرق وأساليب مختلفة في ذلك حيث صرح الجنرال بيجو في 14 مايو عام 1840 أمام مجلس النواب الفرنسي انه " حيث وجدت مياه غزيرة

و أرض خصبة ، يجب أن يقيم المعمرون دون الاهتمام بالسؤال عن أصحاب الأرض" و الذي ينص على مصادرة أراضي القبائل الثائرة مثل القبائل التي انظمت إلى الأمير عبد القادر في مقاومته (36)

لقد طبقت السلطات الاستعمارية في سبيل الاستحواذ على الأراضي الزراعية سياسة قاسية ذات حدين، وهي الاستيلاء بقوة على ما بيد المسلمين ثم إعطائه هبة سخية للغرباء الجائعين الذين جمعتهم من أطراف الأرض ،ثم تطبيق واستعمال كل الوسائل الممكنة ليستقر هؤلاء في تلك الأراضي الخصبة و إبعاد الأهالي الملاك الأصليين لهذه الأراضي إلى الجبال الجرداء و الصحاري القاحلة (37) و لم يتوقف جشع الاستعمار عند حد الاستيلاء على أخصب الأراضي بل عمد في المقابل إلى استغلالها — أي هذه الأراضي — في الأعمال الزراعية التي تنتج أكبر قدر ممكن من المواد الفلاحية دون أي اهتمام بحاجة المواطنين الجزائريين فاهتمامه بالكروم لا يهدف بأي شكل من الأشكال إلى إشباع حاجة الجزائريين (38). و نظرة موجزة إلى بعض الأرقام الخاصة بانتقال الأراضي من عند الجزائيين إلى المعمرين تبرز حجم و فظاعة هذه الكارثة فقد بلغت جملة الأراضي التي صودرت من سكان الريف لمصلحة المستوطنين الأوربيين خلال الفترة ما بين 1840 إلى 1850 — 2703000 من الهكتارات (39)

وإضافة إلى هذه الإجراءات فقد كان الجزائري و إلى غاية 1919 تاريخ إلغاء الضريبة المزدوجة ،كان يدفع الضريبة العربية و الضريبة الفرنسية المباشرة ؛أي يدفع ضرائب اكثر من المواطن الفرنسي، و في المقابل يجرد من كافة الحقوق التي يتمتع بها هذا الأخير فالفلاح الجزائري محروم من أي قرض بنكي فلاحي (40)ولم يكن الجزائريون الذين هجروا أو هاجروا بفعل الحاجة من القرى إلى

المدن بأحسن حال، فالسلطات الفرنسية لم تهتم أصلا بإقامة قاعدة صناعة متينة في الجزائر حتى لا تنافس الصناعة داخل فرنسا من جهة، و حتى تبقى الجزائر سوقا مفتوحة لاستهلاك فائض إنتاج هذه الصناعة ،وهذا ما جعل مناصب الشغل داخل المدن جد محدودة فاستغل المعمرون و من ورائهم السلطات الفرنسية هذه الوضعية لاستغلال و ابتزاز جهد الجزائريين ،من خلال تشغيلهم في أعمال شاقة و لساعات طويلة مقابل أجر جد زهيد .

لقد سعت السلطات الاستعمارية من خلال هذه السياسة المتبعة، و التي استمرت في انتهاجها إلى غاية 1962 إلى تحقيق جملة من الأهداف التي لا تخرج في مجملها عن تحقيق أغراضها الاستعمارية ومنها :

ـــ ابتزاز خيرات و ثروات الجزائر لسد حاجيات فرنسا وتعميرها .

ـــ دعم وتشجيع تمركز المعمرين بالجزائر و تمكينهم اقتصاديا حتى يزداد تعداد الأوربيين على حساب العنصر الوطني أي الجزائريين، و بالتالي ترتبط البلاد وتندمج بصفة نهائية مع فرنسا .

ـــ إمساك مصادر الرزق و العمل للجزائيين كوسيلة فعالة لإخضاعهم للمشاريع و المخططات الاستعمارية حيث أن حاجته إلى الغذاء ستدفعه إلى التنازل عن كل مبادئهم ويسلموا كل أمرهم للإدارة الاستعمارية، فينصرفوا عن التفكير في مستقبل بلادهم إلى التفكير في كسب معاشهم اليومي.

ـــ تسخير الشعب الجزائري بكل فئاته لخدمة المعمرين و المصالح الفرنسية

انعكاس السياسة الفرنسية على واقع المجمع الجزائري

لقد ترتب عن السياسة الفرنسية الاستعمارية المتبعة طيلة فترة الاحتلال نتائج جد وخيمة على المجتمع الجزائري ،و انعكست سلبا على ظروفه المعيشية بمختلف جوانبها و يمكن أن نلاحظ ذلك في عدة مجالات منها :

ـــ الانتشار الواسع لأعمال الشعوذة و تحول الكثير من الزوايا من مراكز علم و عبادة إلى مراكز للجهل و المروق عن الدين حتى أصبحت في أوائل القرن العشرين ترى فوق كثير من الربى الجزائرية و ضمن أغلب الدواوير و داخل كل مدينة قباب بيضاء للسادة الأولياء ؛الذين كان منهم الصالح و منهم المخبول عقليا و كثير من القباب خاصة في الغرب الجزائري تجدها خالية من الأضرحة لأنها مقامات للشيخ عبد القادر الجيلالي الذي لم تطأ قدماه أرض الجزائر بتاتا و مع ذلك فإن مقاماته تقام فيها النذر و تضاء فيها الشموع و تقبل فيها الحجارة (41).كما كانت تقع داخل بعض الزوايا منكرات فضيعة بتشجيع من السلطات الاستعمارية وقد وصف الأمير خالد هذا الواقع بقوله: " ...و مما يستغرب فيه أن بعض الزوايا فيها من أنواع الخمر ما لا يوجد منه في أعظم الديار الأوربية يعدونه للحكام و من يزورهم من أعيان الأجانب ،و فيها من زخرف الدنيا و زينتها ما يحير عقول الزائرين من الأوربيين الذين يتوصلون من الشيوخ بالهدايا النفيسة طلبا للمباهات و الأغراض الشخصية " (42) . وهذا في ظل سعي الاستعمار المتكرر لمحاربة الدين الإسلامي في الجزائر و القضاء عليه بمختلف الطرق من خلال حملة التشويه التي قادها ضد تعاليمه و الاستيلاء على مراكز العبادة .

لكن تجدر الملاحظة إلى أن الاستعمار و إن تمكن من تدجين العديد من الزوايا فالبعض منها بقيت محافظة على نهجها القويم و لم ترتم في أحضان العدو ،حيث يقول عنها توفيق المدني: "... لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر. تلك هي أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل و الظلمات، و عمل رجالها الكاملون الأولون عل تأسيس الزوايا يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل و يقومون بتعليم الناشئة و بث العلم في صدور الرجال و لو لا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها و التي نقف أمامها موقف المعترف لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية و لا لعلوم الدين" (43).

ـــ لقد ترتب عن استيلاء السلطات الفرنسية على الأوقاف الإسلامية غياب مصدر مهم ،كان يساهم بفعالية في سد حاجيات الفقراء و المساكين و عابري السبيل ،حيث بفضل أموال هذه الأوقاف يتم توفير المأكل و الملبس و المأوى كما فقدت دور العبادة مصدرا لتمويل صيانتها ،خاصة و أن السلطات الفرنسية بالرغم من أنها كانت تشرف من الناحية الرسمية على شؤون الديانة الإسلامية إلا أنها وبحجة نقص الموارد المالية قامت بتصنيف المساجد و الزوايا إلى خمس درجات ،وما خرج عن هذا التصنيف ـــ و هي الغالبية الساحقة ـــ لا يستفيد من المنح المخصصة للصيانة .وقد أقدمت السلطات الفرنسية على هذه الخطوة بعد أن قامت بتخفيض عدد المؤسسات المخصصة للعبادة متخذة في ذلك نفس الحجة السابقة ـــ أي نقص الموارد المالية (44).

ـــ إن تضييق الخناق على النشاط الديني حتى في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة التي حاولت أن تظلل الرأي العام و تتظاهر بسياسة تسامح ديني في الجزائر أدى إلى تناقص كبير في عدد علماء الدين من أئمة وفقهاء (45)

ـــ أما فيما يخص سياسة التنصير التي اتبعتها سلطات الاحتلال و وفرت لها إمكانيات ضخمة فقد باءت بفشل ذريع مما دل على مدى تمسك هذا الشعب بدينه ، فما تحقق في هذا المجال يكاد لا يذكر مقارنة بالمجهودات التي بذلت والأهداف التي سطرت في البداية حيث توقع المحتلون أن أيام الإسلام أصبحت معدودة في الجزائر و أن تحول هذا الشعب إلى الديانة المسيحية قضية وقت فقط ولم يتحقق ما توقعوا ،بل حتى الملاجئ التي خصصت لتنشئة الأيتام من أبناء المسلمين تنشئة مسيحية منذ الصغر لم تحقق النتائج المرجوة منها وقد عبر عن هذا الفشل الدكتور غوستاف لوبون عالم الاجتماع الفرنسي بقوله :" فأما ما يخص بالعرب فقد استشهدت بقصة أربعة آلاف يتيم الذين تولى أمرهم الكاردينال لافيجري فعلى رغم تربية هؤلاء تربية مسيحية بعيدة عن كل تأثير عربي رجع أكثرهم إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد" (46)

ـــ إدخال بعض المظاهر الغريبة عن المجتمع الجزائري كالانتشار الواسع للحانات و بيوت الدعارة .

ـــ زرع الفتنة بين بعض القبائل والعداوة بين بعض القبائل. ورغم محدودية هذه الظاهرة إلا أنها وجدت بفعل التسويات التي كانت تقوم بها السلطات الاستعمارية عقب القضاء على بعض الثورات الشعبية، حيث تنزع بعض الأراضي الفلاحية من بعض القبائل و توزعها على قبائل أخرى مثل ما حدث عقب ثورة المقراني (47)

ـــ انقسام سكان الجزائر إلى طبقتين طبقة غنية مستغلة تستحوذ على مصادر الثروة في البلاد و تتمتع بكل الحقوق و الامتيازات الاقتصادية و السياسية والاجتماعية و تتمثل في المعمرين وطبقة دنيا تعاني من الفقر و الحرمان والاستغلال البشع لجهدها من طرف الطبقة الأولى و فاقد لكل الحقوق والامتيازات و تتمثل المواطنين الجزائريين أو كما كان يصفهم المستعمر بالأهالي حيث أن السياسة الاستعمارية أدت إلى انتقال الثروة و المتمثلة أساسا في الأراضي الزراعية من عند أصحابها الأصليين و هم الجزائريين إلى المعمرين القادمين من وراء البحر و تجمع إحصائيات بالنسبة للعشرية التي سبقت الثورة أن أراضى الصالحة للزراعة تبلغ مساحتها أحد عشر هكتار منها ثمانية بيد الجزائريين الذين يمثلون تسعة أعشار السكان و ثلاث ملايين هكتار بيد خمسة وعشرين ألف معمر ،ن الباقي يحتكرون التجارة الخارجية و الصناعة الهامة ويشغلون المناصب القيادية في الدولة على اختلاف أنواعها و في جميع الميـــادين(48)

ـــ تضييق مصادر الرزق على الفرد الجزائري حيث طرد و ابعد عن أراضي السهول الخصبة و قهر على الالتجاء إلى الجبال . و لقي هناك إدارة الغابات التي استولت على مساحات واسعة من الجبال و منعته من سرح أغنامه ففي نفس المناطق التي تركت للأهالي كانت مصلحه الغابات تواجه نشاط السكان الفلاحي بكل صرامة (2)

ـــ تدهور الأوضاع الصحية للشعب الجزائري و انتشار الأمراض الفتاكة من حين إلى آخر كالكوليرا والتيفيس الذين أعقبا مجاعة 1868 و كثرة الوفيات

خاصة لدى الأطفال الصغار و تقدر السلطات الفرنسية عدد الوفيات من الجزائريين آنذاك بمائتي آلف نسمة (49)

و قد أثرت هذه الأوضاع سلبا على نمو السكان حيث لم يتضاعف عددهم طيلة 130 سنة إلا بمرة واحدة ونصف و ذلك .بفعل سوء التغذية و غياب الرعاية الصحية و كثرة المجاعات التي كانت تحل بالجزائر من و الناتجة أساسا من الكوارث التي كانت تصيب الإنتاج الزراعي كالجفاف مع غياب المخزون الغذائي لدى الجزائريين لمواجهة هذا الوضع ذلك أن غالبة الفلاحين الجزائريين كانوا يمارسون زراعة معاشية في الأراضي الجرداء التي طردهم الاستعمار إليها مما يجعل إنتاجها لا يسد حاجيات الفلاح السنوية في احسن الظروف و نادرا ما يكون هناك جزء من الإنتاج يخزن (50)

ـــ كثرة الأيتام و الأرامل و غياب التكفل الرسمي بهم مما زاد في تدهور أوضاع المجتمع الجزائري

ـــ إن النشاط الاقتصادي و الاجتماعي الذي تم تطويره من قل إدارة الخاصة بالأهالي يعمل على جعل الأغلبية الساحقة منهم يعيشون في الفقر و البؤس و في المقابل يعمل على خلق طبقة تمثل همزة وصل بينها وبين الأهالي و تعمل على رسم المخطط الاستيطاني للاحتلال (51)

قائمة المصادر و المراجع:

1ـــ شريط عبد الله، و الميلي محمد مبارك ،مختصر تاريخ الجزائر (السياسي و الثقافي و الاجتماعي)، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985 ، ط 2،ص277

ـــ 2 - محمد حسنين ، الاستعمار الفرنسي ، المؤسسة الوطنية للكتـــاب ،الجزائر ،1986 ، ص 33

3 ـــ وذلك عملا بنصيحة القنصل ديبوا تانفيل في التقرير، الذي أرسله عام 1809الخاص بتوفير أسباب النجاح للحملة العسكرية المزمع إرسالها آنذاك ضد الجزائر أنظر ،جمال قنان ، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث ،المؤسسة الوطنية للطباعة ، الجزائر، 1987، ص250

4 ـــ د عمار بوحوش، خصائص الثورة الجزائرية " مجلة الدراسات التاريخية" يصدرها معهد التاريخ ، الجزائر ،عدد 8 ،السنة 93 ـــ 94 ، ص 109 .

5 ـــ د احمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985،. ص50

6 ـــ احمد الخطيب : المرجع نفسه . ص50 .

7ـــ يحيى بو عزيز: الوقف و مكانته في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية أواخر العهد العثماني و أوائل الاحتلال الفرنسي، بحث قدم في مؤتمر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية المنعقد بجامعة دمشق شهر افريل، مجلة الأصالة ،السنة العاشرة ،جانفي فيبراير 1981 العدد 89 ـــ ص 100

8 ـــ يحيى بو عزيز :المرجع نفسه ، ص

9- Octave Depont - Xaver Copolani : Les Confréries religieuses musulmanes J - maison neuve Paris 1987 , P407 p 91

10 ـــ زوزو عبد الحميد: نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 ـــ 1900) المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1985، ص 69 .

11 ـــ أبو القاسم سعد الله :أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر الشركة الطنية للنشر و التوزيع الجزائر ج 2 ص 112 .

12 ـــ تركي رابح : الشيخ عد الحميد بن باديس رائد الاصلاح و التربية في الجزائر ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981،ص 47،ط3

histoire de l'Algérie contemporaine , 13- ch _ Robert agerone : presses universitaire de France, paris ,1970 ,ed 4, p 65 .

14 ـــ احمد الخطيب : المرجع نفسه ص 60 .

15 ـــ تركي رابح: التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، الشركة الطنية للنشر التوزيع، الجزائر، 1981 ،ص 109،ط2 .

16 ـــ حلوش عبد القادر : حركة التنصير في الجزائر (عهد الاحتلال) ،مجلة الرؤية ، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة نوفمبر (1954)، السنة الاول،ى العدد الاول جانفي ـــ فيفري 1996 ،ص(118 ـــ 129)

17ـــ احمد الخطيب : المرجع نفسه ص 50

18ـــ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح و التربية في الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981 الطبعة الثالثة ،نقلا عن ليلا الاستعمار لفرحات عباس، ص44

19 ـــ مصطفى الاشرف: الجزائر الأمة المجتمع ،ترجمة الدكتور حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، ،1983 ص 274.

20ـــ محمد الطاهر وعلي : التعليم التبشيري في الجزائر 1830 ،1904 ،منشورات دحلب الجزائر 1997، ط 1، ص 15.

21 ـــ من انشط البعثات التبشيرية في الجزائر و كان الهدف من تأسيسها منافسة البعثات البروتستانتية التي تدفقت على الجزائر من أوربا تساندها قنصليات بريطانيا و دول أوربا الشمالية انظر أحمد الخطيب: المرجع نفسه ،ص55.

22 ـــ زوهوني الطاهر : التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للطباعة الجزائر ،1993، ص 33.

23 ـــ جلال يحي : تاريخ المغرب الكبير ،دار النهضة العربية ،دمشق، 1981 ،ج 3 ،ص 238.

20 24 ـــ محمد الطاهر وعلي: المرجع نفسه ،

25 ـــ خالدي مصطفى و فروخ عمر : التبشير و الاستعمار في البلاد العربية ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ،لبنان ،ط 3 ، 1986 ،ص126.

26 ـــ أبو صفصاف عبد الكريم: الثورة الجزائرية و دورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية مجلة سيرتا ، معهد العلم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ،العدد 7/6 ، جويليا 1982،ص 28

27 ـــ صالح عوض معركة الإسلام و الصليبية في الجزائر 1830 ، 1962 ط 1 ، 1962 مطبعة دحلب الجزائر ص221

28 ــ محمد ناصر : المقالة الصحفة الجزائرية ،الشركة الوطنية للنشر التوزيع ، الجزائر ، 1978، ج 2 ،ص 205.

29 ــ تركي رابح: الشيخ بن باديس ،ص 46.

30 ــ أبو القاسم سعد الله : مجلة الثقافة 79 سنة14

31 ch _ Robert agerone : IBID. , P 105 .

32 ــ رابح تركي: الشيخ بن باديس ،ص 46.

33 ــ أندري برنيان و أندري برنيان ، أندري نوشي ، إيف لاكوست، الجزائر بن الماضي و الحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح، و منصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر،1984، ص 303 .

34ــ ــ عبد الكريم بوصفصاف: الثورة الجزائرية و دورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية، مجلة سيرتا، عدد 7/6 جويليا 1982 ،ص 28.

35 ــ ــ زوزو عبد الحميد : المرجع نفسه ، ص 99.

36 ــ رابح تركي: الشيخ عد الحميد بن باديس ،ص89.

37 ــ محمد ناصر : المرجع نفسه ،ص 83 ،ج 2 .

38 ــ عبد الكريم بو صفصاف: الثورة الجزائرية و دورها في غزالة الاستعمار من القارة الإفريقية مجلة سيرتا ، معهد العلوم الاجتماعية ،جامعة قسنطينة، السنة الثالثة ، العدد 5، ماي 1981 (22 ــ 44).

39 ــ تركي رابح: التعليم القومي ، ص 89 .

- Ch _ Robert agerone , Ibid ,P 540

41 ــ الخطيب أحمد : المرجع نفسه ،ص 85.

42 ــ محمد ناصر: المرجع نفسه ،ص 113 ،ج 1.

43 ــ أحمد توفيق المدني :المرجع نفسه ص، 375.

44 ــ زوزز عبد الحميد : :المرجع نفسه ، ص 243.

45 - Ch - Robert agerone: Ibid, P65 .

46 ــ تركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس ،ص 48.

47 ــ بسام العسلي : محمد المقراني و ثورة 1871 الجزائرية ، (سلسلة جهاد الجزائر) ، دار النفائس ،بيروت ، 1981 ، ط 1 ،ص 196.

48 ــ الزبيري محمد العربي: الثورة الجزائرية في عامها الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ، ط 1 ، ص 42.

49 ــ توفق المدني كتاب الجزائر ص 62

50 ــ أندري برنيان المرجع السابق ص 304

51 ــ Ihaddaden - zahir , Histoire de la presse indigène en Algérie ,(e, n,a,l) Alger 1983 P 289